القول الصائب

في تحقيق

معنى الصلب والترائب

تأليف

خادم العلم الشريف

أبي الفضل أحمد بن منصور قرطام الحسيني المالكي

إصدار

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم – فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾(يّس الآية: 77)

صدق الله العظيم

قال صلى الله عليه وآله وسلم:

« من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، إنما العلم بالتَّعَلُم والفقه بالتفقه »

(رواه البخاري).

تقديم وتقريض لفضيلة العلامة الإمام المحدث الهمام الفقيه الأصولي المتفنن المقدام مفخرة المغرب ومحدثها العالم الجليل والمحقق النحرير والناقد البصير ذو التصانيف العديدة والتآليف السديدة المفيدة الشريف المنيف المُتَوشِح بالشرفين شرف العلم العليّ والنسب الجليّ شيخنا وشيخ مشايخنا أبو اليسر جمال الدين سيدي عبد العزيز الغماري الحسني الطنجي منشأ وداراً المغربي موطناً كان الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام الأتّمان الأكملان على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وآله.

(وبعد) فالله سبحانه وحده هو العالم بما خلق، المخْبِر في كتابه العظيم بحقيقة كل مخلوق، وكيف أنشأه، وكيف ركَّبَه، كما قال تعالى: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(الملك الآية:14)، فلأجل هذا كانت محاولة من يأتي بخلاف ما أخبر به الله تعالى عن أصل الوجود، وكيفية تكوينه من فهمٍ قد يخطئ، وتجربة لا تقوم على أساس ونظرية فكرية، فيما أخبر به القرآن وقرره، وأصَّلَه في بيان أصل المخلوقات عُلويها وسُفليها كبيرها وصغيرها من الذرة إلى أعظم كوكب في الفلك من تقديم الظن على اليقين، والشك على الحق المقطوع به!!! وهذا عمل لا يصدر إلا ممن جهل أمر دينه وترك ما قرره العقلاء والعلماء النقاد من وجوب تقديم ما أخبر به الله تعالى عن أصل العالم، وكيف كون المخلوقات عما قاله الإنسان الذي يخطئ مرات، ويصيب مرة ولا يخبر إلا بما ظهر، وأعطاه له النظر عن تكوين المخلوقات غير مستند على يقين في ذلك ولا معتمد على حكم عقلي عند العقلاء كالواحد نصف الاثنين وإنما هو من باب قوله تعالى: ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾(الجاثية: من الآية32)، وأغلب ما أصاب الناس اليوم ممن يدعي

العلم من ضلال، وفسوق، ومُرُوق عن العقيدة الصحيحة السالمة من الشك والارتياب أصل هذا كله والعياذ بالله تعالى هو العمل بتقديم الظن من فهمهم بما ظهر لهم من النظريات التي يظهر بعد قريب لهم أو لغيرهم فسادُها، وخطأُها كما يدل على ذلك الواقع على اليقين من خبر الله تعالى في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!!! والرزية الكبرى، والمصيبة العظمى أنهم يظنون أن هذا العمل هين، وهو عند الله عظيم، لأنه إلحاد محض، وخروج عن حظيرة المؤمنين مرة واحدة!!!.

وفي هذا الموضوع كتب الأستاذ الفاضل الأخ الأجل السيد أحمد منصور قرطام وَفَّقَه الله تعالى هذه الرسالة اللطيفة الصغيرة في أوراقها الكبيرة فيما اشتملت عليه من فوائد وتحرير مفيد في بيان خطأ قول بعض الأطباء في أصل تكوين المني المخالف لما أخبر به القرآن العظيم، وقد قرأته فوجدته قد أحسن فيها الرد، وأتقن النقد، فجزاه الله خيراً، وأعانه على العمل على نصر دين الله تعالى إنه سميع مجيب وبالله التوفيق.

وكتب عبد العزيز بن محمد بن الصّديق كان الله له

طنجة 23 ربيع الثاني 1416 هجري الموافق له 18 / 9 / 1995 رومي

تقريض لفضيلة العلامة كمال الدين جعيط مفتي الجمهورية التونسية وعضو المجلس الإسلامي الأعلى فيها ومدرس مادة الفقه المقارن بالجامعة الزيتونية وعضو مجمع الفقه الإسلامي بجدة وعضو لجنة القانون والتشريع بجامعة الدول العربية وإمام وخطيب جامع الأحمدي الكبير بالمرسى حفظه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وصحبه ومن والاه وبعد: فقد طالعت رسالة تحرير القول الصائب في تحقيق معنى الصُّلْب والترائب تأليف خادم العلم الشريف أبو الفضل أحمد منصور قرطام وفقه الله لتحقيق غاية المراد فوجدته حرياً بالقبول إذ قد عززه بالنصوص التي هي في تاج الحسن فصوص وطرزه بالأدلة المفيدة والبراهين العديدة والله ندعو لجامعه أن لا يزال واري الزند سعيد الجواد إنه سبحانه الجواد المفضال قاله وكتبه العبد الفقير إلى ربه كمال الدين جعيط خادم العلم الشريف بالجمهورية التونسية صانها الله من كل بلية

وكتب في 4 شوال 1416 هجري الموافق له 26 فيفري 1996 رومي.

تنبيه

نلفت عناية القارئ أن هذه الرسالة غير مسبوقة بتآليف من قبل وقد انفرد بها شيخنا أبو الفضل أحمد بن منصور قرطام بطلب بل بأمر من سيده ومولاه مفخرة المغرب وسيدها في ذلك الوقت السيد الشريف العلامة المنيف سيدي عبد العزيز الغماري عليه من الله رحمة الباري ولسان حالنا يقول ذهب الذين كنا نعيش في أكنافهم فإلى الله المشتكى والمفزع .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً كثيراً، خلق الإنسان من نطفةٍ فقدره تقديراً، ثم السبيل يسره فجعله سميعاً بصيرا ثم أماته فأقبره فجعله رفاتاً منثورا، ثم أخرجه يوم الحشر فالكل مبعوثاً ومحشوراً، وأصلي وأسلم على من أُرسِل للعالمين بشيراً ونذيراً وعلى آله وأصحابه الميامين الذين أظهروا من الدّين خفاياه صغيراً كان أو كبيراً صلى عليك الله يا علم الهدى عدد خلقه تأنيثاً وتذكيراً.

أما بعد،،،

فقد سمعنا كلاماً منقولاً عن بعض الأطباء المسلمين حول موضوع أصل المني أين يتكون ومن أي الطرق يصل إلى خصيتي الرجل ورحم المرأة، على أن بعض رجال الطب الحديث قالوا أنه يأتي من عروق ليس بلازم أن يمر بصُلْب الرجل وتَرَائِب المرأة فتأملت كثيراً قبل أن أقوم بتأليف بسيط ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخلِّ ناقلاً فيه حُكْم ديننا الحنيف لأن في كلام هؤلاء الأطباء إشارة صريحة إلى إبطال ما أخبر به القرآن من الغيب وما نطق به الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾(النجم الآيات:3-4). على أنه يجب على من يدعي علماً مثل هذا أو غيره أن يأتي بحجة واضحة لكي يقبل منه ما ادعى فكيف إذا كان هذا النوع من العلم يخالف الكتاب والسنة، ولا يردّ هذا قولُهم أن الدين صالح لكل زمان

ومكان، على أن يُقلَبَ الدين على هوى كل من ادّعى علماً إلاّ ببينة تامة وحينئذ لا مانع أن يُؤَوَّلَ ما جاء في القرآن والسنة على شرط أن يوافق قواعد الشريعة وصريح المعقول والمنقول ولغة العرب. أما ما كان من قبيل الظن والتخمين فلا يقبل مع وجود ما هو أقوى منه من غلبة الظن أو اليقين تصريحاً لا تلويحاً، وهذا هو المعبر عنه عند الأصوليين بأن القرآن قطعي الثبوت ظني الدلالة إلا ما أجمع العلماء على معناه ومعلوم لدى الخاصة وأكثر العامة أن تشخيص الأمراض وتحديد نوع الدواء لمعالجتها لهوَ من قبيل الظنيات بدليل ما هو مشاهد أن كثيراً من المرضى يوصف لهم الدواء ولا يبرؤون بل هناك من يموت من ذلك الدواء وهناك من الأدوية ما يتم تداولها بكثرة بين الناس ولكن بعد مدة من الزمن يتم توقيف العمل بها بسبب اكتشاف ما فيها من أضرار على صحة الإنسان، وبناءً على ما ذكرت أشرع بإذن الله وبحسن توفيقه بتوضيح هذه المسألة في هذه الرسالة معتمداً على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أقوال العلماء الأعلام من أئمة أهل الإسلام حاصراً الموضوع بالصلب والترائب فقط، ولن أتعرض إلى تطور خلق الإنسان من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام إلى كسائها لحماً؛ لأنه ليس مقصوداً هنا، بل المقصود هو أصل مادة المني قبل الاستحالة، وهل تمر في صلب الرجل إلى الخصيتين قبل خروجه من الذكر منياً؟ وهل ماء المرأة قبل الاستحالة يمر في ترائبها وذلك قبل وصوله الرحم؟ وما هو الصلب؟ وما هي التَرِيْبَة؟، وقد سمَّيتها "**القول الصائب بتحقيق معنى الصلب والترائب**" والأصل فيه قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾(الطارق الآيات: من 5-6- 7). هذه الآية من أهم الآيات التي جاءت في القرآن وتعرضت لأصل خلق المني وتطوره ومروره لفظاً ومعنى وذلك بقوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾.

قال ابن منظور صاحب لسان العرب الصلب والصلب: عظم مِن لدن الكاهل إلى العُجْب، أي عُجْب[1] الذنب وهو آخر العمود الفقري من جهة الحوض والجمع أَصْلب وأَصْلاب وصلبة ثم قال: والصُّلْب من الظهر، وكل شيء من الظهر فيه فقار فذلك الصلب وقول العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه يمدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

تنقــل مــن صــالبٍ إلى رحــمٍ إذا مضـــى عـــالمٌ بـــدا طبـــق

أراد بالصالب، الصلب، ويقال للظهر: صلب وصالب والأصلاب: جمع صلب وهو الظهر وهو من باب تسمية الجزء بالكل، وقال الفيومي في المصباح المنير: "والصلب كل ظهر له فقار"، وقال صاحب مختار الصحاح: "الصلب" عظم ذو فقار بالظهر. انتهى. ومن أراد المزيد فلينظره هناك في مواضعه مادة "صلب".

وأما التَّرَائِبِ: قال الرازي في مختار الصحاح التريبة واحدة "وَالتَّرَائِبِ" وهي عظام الصدر وهو جلي واضح وقال ابن منظور في مادة ترب: "وَالتَّرَائِبِ" موضع القلادة من الصدر، وقيل الترائب عظام الصدر، وقيل الترائب أربع أضلاعٍ من يمنتة وأربع من يسرته، وقوله عز وجل: ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قيل الترائب: ما تقدم وهو المقصود، وقال الفراء: يعني صلب الرجل وترائب المرأة وقيل: الترائب اليدان والرجلان والعينان، وقال واحدها تَرِيبَة. وقال أهل اللغة أجمعون الترائب موضوع القلادة من الصدر وأنشدوا:

مُهَفْهَفَــة بيضــاء، غــير مُفَاضِــةٍ تَرَائِبُهـــا مصـــقولة كالسُّـــجُنْجُل

وقيل التريبتان: الضلعان اللتان تليان الترقوتين، قال أبو عبيد: الصدر فيه النحر وهو موضع القلادة، واللبة: موضع النحر، والثغرة ثغرة النحر وهي الهزمة بين الترقوتين والترقوتان: العظمان المشرفان في أعلى ثغرة النحر، وباطن الترقوتين الهواء الذي في الجوف

(1) العُجْب والعَجْب: أصل الذنب.

لو خرق، يقال لهما القلتان، وهم الحاقنتان أيضاً والذاقنة طرف الحلقوم. قال ابن الأثير: وفي الحديث ذكر التريبة، وهي أعلى صدر الإنسان تحت الذقن وجمعها الترائب، فراجعه هناك إذا شئت وهو واضح جلي، والتسمية أحيانا بالنحر واللبة والثغر إلى غير ذلك من الأسماء فإنه لا ينافي المقصود؛ لأن هذه الأسماء جزئيات كلها موجودة على الصدر فيفصل تارة ويجمل تارة أخرى وقول الشيخ رحمه الله آنفا: الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر ومن يسرته وأردفه بالآية وذلك لأجل الاستدلال على المقصود ولكن أتينا بكل هذه المعاني لأن نقل العلم أمانة وعدم التثبت فيه غدر وخيانة فليراجع في مواضعه من كتب اللغة فإنهم صالوا وجالوا في هذا المعنى وعن الحق ما مالوا.

وبعد هذه المقدمة اللغوية نشرع بما قاله العلماء الأعلام المتضلعين بشرح أحاديث وآيات الأحكام وهم مستنبطين ذلك من السنة والقرآن مع اجتهاد مسؤول ومقبول لا يخرج عن المنقول والمعقول وهذا الذي أوصى به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو حقيقة من العجائب إذ أوحى له ربه أنه: ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ قال العلماء: إن الناس لا يتفطنون لذلك الخروج لأنه مستعمل في ابتداء التنقل من مكان إلى مكان ولو بدون بروز، فإن بروز هذا الماء لا يكون من بين الصلب والترائب، إنما المقصود المرور في الصلب، والمرور في الترائب، وهو العمود العظمي الكائن في وسط الظهر وهو ذو الفقرات، وفي الحديث « في الصلب الدية » أخرجه أبو داود في مراسيله والنسائي وابن خزيمة، وحسنه الحافظ ابن حجر في كتابه بلوغ المرام، قال القتيبي رحمه الله: فيه قولان: أحدهما: أنه إن كسر الصلب فحدب الرجل ففيه الدية والقول الآخر إن أصيب صلبه بشيء ذهب به الجماع فلم يقدر عليه فديتان دية لكسر الصلب ودية لذهاب الجماع، وهو إجماع الفقهاء، وحدوه عظم من لدن الكاهل إلى العجب بفتح العين المهملة وسكون الجيم أصل الذنب وهو واضح جلي لأن مراد الفقهاء أن المني يمر في الصلب بمعنى جزء منه لذلك سموا الجماع صلباً لأن المني يتأتى منه فانظر كيف فهم الفقهاء رحمهم

الله الحديث وهو مطابق لمعنى الآية وكما هو معلوم أن السنة لا تناقض القرآن بل هي مفسرة له وذلك معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ أوتيت القرآن ومثله معه ﴾، وبهذا الحديث يكون قد تم المعنى المراد من الآية، وجاء في الحديث أيضاً ﴿ إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاب أبائهم ﴾، وأما الترائب: فهي جمع تريبة، ومحرر أقوال العلماء اللغويين فيها أنها عظام الصدر التي في الحديث بين التُّرْقُوتَين والثديين ووسّموه بأنه موضع القلادة من المرأة والترائب تضاف إلى الرجل وإلى المرأة، ولكن أكثر وقوعها في كلامهم في أوصاف النساء لعدم احتياجهم إلى وصفها في الرجال قال ابن عباس رضي الله عنهما: الترائب موضع القلادة، وعنه ما بين ثدييها وقال عكرمة وروي عنه، يعني ترائب المرأة: اليدين والرجلين والعينين، وبه قال مجاهد: هو ما بين المنكبين والصدر، وعنه التراقي، وعن ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: الترائب أربع أضلاع من هذا الجانب وأربع من هذا الجانب، وحكى الزجاج: أن الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر وأربع أضلاع من يسرة الصدر، وقال معمر بن أبي حبيبة المدني: الترائب عصارة القلب ومنها يكون الولد، والمشهور من كلام العرب أنها عظام الصدر والنحر. وقوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ الضمير عائد إلى ﴿ ماء دافق ﴾ وهو المتَبَادر، فتكون جملة ﴿ يخرج ﴾ حالاً من ماء دافق، أي يمر ذلك الماء بعد أن يُفرَز من بين صلب الرجل وترائبه، وبهذا قال سفيان والحسن. أي أن أصل تكوّن ذلك الماء وتنقله من بين الصلب والترائب، وبناء على هذا يكون معنى الخروج في الآية محمولاً على المرور، وقال الأعمش يخلق من ماء الرجل الذي يخرج من صلبه العظم والعصب، ومن ماء المرأة الذي يخرج من ترائبها اللحم والدم، فجعل الإنسان مخلوقاً من ماء الرجل لأنه لا يتكوّن جسم الإنسان في رحم المرأة إلا بعد أن يخالطها ماء الرجل، فإذا اختلط ماء الرجل بما يسمى ماء المرأة الذي يحتوي على بويضات دقيقة يَثْبُت منها ما يتكوّن منه الجنين ويُطرَح ما عداه، وهذا من باب مخاطبة الناس بما يعرفون يومئذ بكلام مجمل مع التنبيه على أن خلق الإنسان من

ماء الرجل وماء المرأة بذكر الترائب؛ لأن الأشهر أنها لا تطلق إلا على ما بين ثديي المرأة، ولا شك أن النسل يتكون من الرجل والمرأة، فيتكوّن من ماء الرجل وهو سائل أبيض لزج فيه رائحة البيض ويسمى في لغة الطب بالخلايا المنوية، ومنه يكون تلقيح النسل في رحم المرأة ومقره الأُنْثَيان وهما الخِصْيَتان فيندفع إلى رحم المرأة، ومن ماء يسمّى ماء المرأة هو كالمني للرجل ولونه أصفر أخف من ماء الرجل، ويكون على شكل بويضات دقيقة في حويصلات وهما مبيضان بمنزلة الأُنْثَيان للرجل تكونان في جانبي رحم المرأة، ويكون خروج البيضة من الحويصلة بعد انتهاء نموّها، فتنفجر، وتخرج البيضة في قناة تبلغ بها إلى تجويف الرحم، وإنما يتم بلوغ البيضة النمو وخروجها من الحويصلة في وقت حيض المرأة، لذلك يكثر العُلُوق إذا باشر الرجل المرأة بعد انتهاء حيضها بأيام معدودة تقدر بمدة الحيض تقريباً، وأصل مادة كلا المائين دموية تنفصل عن الدماغ وتنزل في عرقين خلف الأذنين، فأما في الرجل فيتصل العرقان بالنخاع، والنخاع يمر في داخل الصلب ثم ينتهي إلى عرق أو عروق تسمى بالحبل المنوي مؤلف من شرايين وأوردة وأعصاب وينتهي إلى الأنثيين وهما الغدتان اللتان تفرزان المني فيكون هناك بكيفية دهنية وتبقى منتشرة في الأنثيين إلى أن تفرزها الأُنْثَيان مادة دهنية شحمية، وذلك عند دَغْدَغَة ولَذْع القضيب المتصل بالأنثيين فيندفق في رحم المرأة، ولهذا فإن المكثر من الجماع يجد وجعاً في ظهره وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبساً فيه من ماء، وأما بالنسبة إلى المرأة فالعرقان اللذان خلف الأذنين يمران بأعلى صدر المرأة وهو الترائب لأن فيه موضع الثديين، ولأجل هذا عندما يقترب موعد حيض المرأة تشعر المرأة غالباً بوجع في رأس ثديها ويظهر عليها علامات اختلال المزاج وما هو إلاّ بسبب ما طرأ عليها، والثديان من الأعضاء المتصلة بالعروق التي يسير فيها دم الحيض الحامل للبويضات التي منها النسل، والحيض يسيل من فوهات عروق في الرحم، وهي عروق تنفتح عند حلول المحيض وتنقبض عقب الطهر، والرحم يأتيها عصب من الدماغ وبناء على هذا فيكون الخلق من ماء الرجل وماء المرأة وإن الله تعالى ذكر خلق

الإنسان من الماء والسلالة والنطفة وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾(المرسلات الآية:20)، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾(السجدة الآية:8)، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾(القيامة الآية:37)، ولم يضفهما الله إلى أحد الأبوين دون الآخر فدل على أن الماء والسلالة لهما والنطفة منهما، وذلك بأن المرأة تمني كما يمني الرجل وقد قال في قصة نوح: ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾(القمر من الآية:12)، وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض لأن الالتقاء لا يكون إلى من اثنين ويراد ماءين وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن الذي لم يكن علم به للذين نزل بينهم وهو إشارة مجملة وقد بينها مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن أم سليم رضي الله عنها قالت:" يا رسول الله هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ قال: ﴿ نعم إذا رأت الماء فلتغتسل ﴾. فقالت لها عائشة رضي الله عنها: أفٍ لك وهل ترى ذلك المرأة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ تَرِبَت يمينك ومن أين يكون الشبه؟ ﴾" دليل على أن الولد يخلق من الماءين، وعن أنس مرفوعاً ﴿ ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا أو سبق يكون منه الشبه ﴾ (رواه مسلم)، وروى أنس: "أن عبد الله بن سلام سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أين يشبه الولد أباه وأمه؟ فقال: ﴿ إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها ﴾"(رواه البخاري). وفي حديث ثوبان مرفوعاً أن النبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أو علا أشبه الرجل أعمامه وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل أو علا أشبه الرجل أخواله ﴾(رواه مسلم)، ومني الرجل أحرّ وأقوى، فلذلك كان أغلظ وأبيض، ومني المرأة أرق وأضعف فلذلك كان أصفر وخفيف، والشبه يكون بأقربهما إنزالاً وأكثرهما منياً وأصدقهما شهوة. قال أبقراط: المني يسيل من جميع الأعضاء فيكون من الصحيح صحيحاً ومن السقيم سقيماً. قال ابن العربي: إن للماءين أربعة أحوال:

أولاً: أن يسبق ماء الرجل ماء المرأة ويكون أكثر منه يأتي الولد ذكراً بحكم السبق وأشبه والده أو أعمامه بحكم الكثرة.

ثانياً: أن يسبق ماء المرأة ماء الرجل ويكون أكثر منه يأتي الولد أنثى بحكم السبق وأشبه أمه أو أخواله بحكم الكثرة.

ثالثاً: أن يسبق ماء المرأة ماء الرجل ويكون ماء الرجل أكثر من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم السبق وأشبه والده أو أعمامه بحكم الكثرة.

رابعاً: أن يسبق ماء الرجل ماء المرأة ويكون ماء المرأة أكثر من ماء الرجل كان الولد ذكراً بحكم السبق وأشبه الولد أمه أو أخواله بحكم الكثرة.

وزاد ابن حجر قسماً خامساً وسادساً وهو مشاهد فقال:

خامساً: أن يسبق ماء الرجل ماء المرأة ويستويان في الكثرة كان الولد ذكراً ولا يختص بشبه.

سادساً: أن يسبق ماء المرأة ماء الرجل ويستويان في الكثرة كان الولد أنثى ولا يختص بشبه أيضاً، ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن ولذلك يشبه المولود أبويه كثيراً وهذا هو معنى قولهم الولد صنوان أبيه وهي الحكمة في غسل جميع الجسد بعد خروج المني وبانتظام هذه الأقسام يستتب الكلام فسبحان الخالق العلام.

وكان لا بد هنا من التعرض إلى موضوع الخنثى وكيف خلق؟ ومتى ظهر لنا وما يتعلق به من أحكام وكيفية التعامل معه في المجتمع؟ وما حكم العمليات التي تجري على كثير من الناس لتمحيض الذكورة أو الأنوثة؟ قال تعالى: ﴿ يوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾(النساء من الآية:11). قال العلماء: يستدل من هذه الآية على وجود الخنثى وذلك بقوله تعالى: ﴿ فِي أَوْلادِكُمْ ﴾ لأن كلمة ولد تشمل الذكر والأنثى وما بينهما.

والخنثى: هو الذي له فرجان، وأجمع العلماء على أنه يُورَّثُ من حيث يبول، فإن بال من حيث يبول الرجل ورث ميراث رجل، وإن بال من حيث تبول المرأة ورث ميراث المرأة، وإن بال منهما معاً فالمعتبر سبق البول، قاله سعيد بن المسيب وأحمد وإسحاق، وحكي ذلك عن أصحاب الرأي، وروى قتادة عن سعيد بن المسيب أنه قال في الخنثى: يورثه من حيث يبول، فإن بال منهما فمن أيهما سبق، فإن بال منهما معاً فنصف ذكر ونصف أنثى، وقال يعقوب ومحمد: من أيهما خرج أكثر ورث وحكي عن الأوزاعي وقال النعمان: إذا خرج منهما معاً فهو مشكل ولا أنظر إلى أيهما أكثر وحكي عنه إذا أشكل يعطى أقل النصيبين، وقال يحيى بن آدم: إذا بال من حيث يبول الرجل ويحيض كما تحيض المرأة ورث من حيث يبول لأن في الأثر:" يورّث من مباله"، وقال الشافعي: إذا خرج منهما جميعاً ولم يسبق أحدهما الآخر يكون مشكلاً، ويعطى من الميراث ميراث أنثى ويوقف الباقي بينه وبين الورثة حتى يتبين أمره، وبه قال أبو ثور، وقال الشعبي: يعطى نصف ميراث الذكر ونصف ميراث الأنثى، وبه قال الأوزاعي، وهو مذهب مالك وزاد ابن شاس فقال: إذا كان مشكلاً اعتبر نبات اللحية وكبر الثديين ومشابهتها لثدي النساء، فإن اجتمع الأمران اعتبر الحال عند البلوغ، فإن وجد الحيض حكم به، وإن وجد الاحتلام وحده حكم به فإن اجتمعا فهو مشكل، وكذلك إذ كان فرجه لا فرج أنثى ولا فرج ذكر، بل كان له مكان يبول منه فقط انتظر به البلوغ فإن ظهرت علامة مميزة وإلا فهو مشكل وقال علي والحسن عليهما السلام: إذا أشكل تعد أضلاعه فإن الأنثى تزيد على الذكر بضلع واحد وبها حكم وعليه العمل، وإذا بقي مشكلاً فلا يكون زوجاً ولا زوجة ولا أباً ولا أماً ويورث نصف حظّ الذكر ونصف حظ الأنثى وهو نادر جداً؛ لأن الخنثى ليس بنوع لكن له حقيقة تردّه إلى هذين النوعين وهي الآدمية فيلحق بأحدهما مع اعتبار نقص الأعضاء وزيادتهما وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾(النساء من الآية:1).

أما قوله تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ،أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً ﴾(الشورى من الآيات:49-50). فهذا إخبار عن الغالب في الموجودات وسكت عن ذكر القليل النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأول فافهم ذلك تهد للصواب، وجمع أحدهم كل ما يتعلق بالخنثى في قصيدة منها:

وأنــــه مُعْتَبَـــــرُ الأحــــوالِ ... بالثَّـــدي واللحيــــةِ والمبَــــالِ
وإِنْ يكـــن قَـــدِ اســتوتْ حالاتُـــه ... ولم تَـــبِنْ وأُشْـــكِلَتْ آياتُـــــه
فحظُّـــه مِـــنْ مَـــورثِ القَريْـــبِ ... ســـتةُ أثمـــانٍ مـــن النَّصِـــيْبِ
هـــذا الـــذي اســتُحِقَّ للأَشْـــكَالِ ... وفيـــه مـــا فيـــه مـــن النَّكَـــالِ
وواجـــبٌ في الحِـــق ألا ينَكَحَـــا ... مـــا عـــاش في الـــدنيا وألا يُنْكَحَـــا
إذْ لم يكـــنْ مـــن خَـــالِصِ العِيَـــالِ ... ولا اغْتَـــدى مـــن جُمْلَـــةِ الرِجـــالِ
وكـــلُّ مـــا ذكرتُـــه في الـــنَّظْمِ ... قـــد قالـــه سُـــرَاةُ أهـــلِ العلـــمِ
وقـــد أبى الكـــلامَ فيـــه قـــومٌ ... مِـــنْهم ولم يجـــنح إليـــه لَـــوْمُ
لِفْـــرطِ مـــا يَبـــدو مـــن الشّـــنَاعَة ... في ذكْـــرِه وَظـــاْهِرِ البَشَـــاعَةْ
وقـــد مَضـــى في شـــأنِه الخَفِـــيّ ... حُكْـــمُ الإمـــامِ المرْتَضـــى علـــيِّ
بأّنـــه إنْ نَقُصَـــتْ أضْـــلاعُه ... فللرجـــال ينبغـــي إتْباعُـــه
في الإرْثِ والنّكـــاحِ والإحْـــرامِ ... في الحَـــجِّ والصـــلاةِ والأحْكَـــامِ
وإنْ تَـــزِدْ ضِـــلْعاً علـــى الـــذكّرانِ ... فإنّهـــا مِـــنْ جُمْلَـــةِ النّســـوانِ
لأنّ للنســـوانِ ضِـــلْعاً زائـــدهْ ... علـــى الرجـــالِ فاغْتَنِمْهـــا فَائْـــدة
إذْ نَقُصَـــتْ مـــن آدم فيمـــا سَـــبَقْ ... بِخَلْـــقِ حـــواءَ وهـــذا القـــولُ حـــقْ
عليـــه ممـــا قالـــهَ الرســـولُ ... صـــلّى عليـــه ربُّنـــا دَلِيْـــلُ

وأما عن ظهور الخنثى قال العلماء: إنّ الخلقة كانت مستمرة ذكراً وأنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخنثى فأُتِيَّ به فريض العرب ومعمرها في ذالك الوقت عامر بن الظرب[2] فلم يدر ما يقول فيه وأرجأهم عنه، فلما جنّ عليه الليل تنكر موضعه، وأقض عليه مضجعه وجعل يتقلّى ويتقلب وتجئ به الأفكار وتذهب، إلى أن أنكرت خادمه حاله فقالت: ما بك؟ قال لها: سهرت لأمر قصدت به فلم أدر ما أقول فيه؟ فقالت: ما هو؟ قال لها: رجل له ذكر وفرج كيف يكون حاله في الميراث؟ قالت له الأمة: ورثه من حيث يبول فعقلها وأصبح فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين ومن ثم جاء الإسلام على ذلك وأقرّها وعموم القدرة متعلقّة به قال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾(الشورى من الآية:49)، فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه لأن القدرة تقتضيه وقد روى الفَرَضِيّون عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " أنه سُئِلَ عن مولود له قبل وذكر من أين يُورَّث؟ قال: ﴿ من حيث يبول ﴾". وروي أنه أوتي بخنثى من الأنصار فقال ورثوه من أوّل ما يبول. وكذا روى محمد بن الحنفيّة عن علي كرّم الله وجهه ونحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وبه قال ابن المسيب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وحكاه المزني عن الشافعي وهو مشهور المذهب المالكي (راجع التفصيل السابق).

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما من طرق كثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ﴿ لو أن أحدكم إذا ما أتى أهله قال: بسم الله الّلهم جنبنا

---

(2) عامر بن الظرب بن عمرو بن عياد العدواني الملقب بذو الحلم، حكيم، خطيب، رئيس من الجاهليين عاش ثلاثمائة ونيف قبل الإسلام كان إمام مضرّ وحكمها وفارسها وكان له فهم ثاقب، وهو ممن حرّم الخمر في الجاهلية قبل الإسلام بكثير وكانت العرب لا تعدل بفهمه فهما ولا بحكمه حكماً وهو أوّل من قرعت له العصى وفيه يضرب المثل قال الشاعر:

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا   وما علم الإنسان إلا ليعلما

واسم جاريته خصيلة أو حسيلة.

الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضي بينهما ولد لم يضره ﴾ وهذه رواية مسلم وفي البخاري زيادة: ﴿ لم يضرّه شيطان أبدا ﴾ ويفسر حديث البخاري ومسلم ما نقله ابن جرير في كتابه تهذيب الآثار عن مجاهد رضي الله عنه: ﴿ إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه فذلك معنى قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾(الرحمن من الآية:56) ﴾، وقال الطرطوسي في كتابه تحريم الفواحش تحت عنوان "باب من أي شيء يكون المخنث" بسنده المتصل إلى ابن عباس رضي الله عنهما: "المخنثون أولاد الجنّ". قيل لابن عباس كيف ذلك؟ قال: "إنّ الله عز وجلّ نهى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتي الرجل امرأته وهي حائض فإذا أتاها سبقه إليها الشيطان فحملت فجاءت بالمخنث" أي إذا حملت، وهو واضح جلّي ولذلك كان إتيان المرأة في حيضها من الكبائر لما يترتب عليه من فساد صحي وخلقي بكسر الخاء وبقول مجاهد والطرطوسي يتضح البيان ويفسّر الحديثان مع تقديم وتأخير وجمع بينهما ولا تعارض بين النقل والعقل هنا بل هو من باب الجائز العقلي ولكنه نادر الوجود لأنّ أصل الخليقة الذكر والأنثى وهو ناتج عنهما فهو قليل الوجود حتى الآن وبعد التوضيح الذي قدمناه عن الخنثى لا بد من معرفة ما هو حكم من يقوم بإجراء عملية لتثبيت الذكورة أو الأنوثة فيه فالجواب: إن ما عمل به أهل العلم من توريثه من حيث يبول وعدّ أضلاعه إنّما هو من باب تغليب الذكورة على الأنوثة أو العكس ولو حكماً وذلك لتحديد نوعيته ومكانته وكيفية التعامل معه في المجتمع مع ما يتعلّق به من بقية الأحكام من اختلاط وزواج وميراث وشهادة وجهاد وحج... إلخ. فإن ما بُنِيَّ عليه المقصد الشرعي من التعامل مع هذا الجنس من البشر واضح جلي المعنى، ولأجل هذا المقصد شمّر العلماء الأعلام من هذه الأمة عن سواعد الجد معتمدين على ما جاء في الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، وذلك لتسهيل الأمر على السواد الأعظم من هذه الأمة، فوضعوا لنا الضوابط الأصلية لفهم هذه المسألة والحمد لله على ذلك وجزاهم الله عنا كل خير، وأما اليوم ومع توفر آلات الطب الحديثة

وإمكانية التدقيق وتحديد الخلايا الموجودة في الخنثى زيادة على أصل ما اعتبره الفقهاء من المبال وشعر اللحية والثديين وعدّ الأضلاع مع أمانة الأطباء الأكفاء القائمين والمباشرين لحالة الخنثى فلا مانع من إجراء ما يلزم من جراحة أو غيرها لأنه لا شكّ أن الوسائل تعطى حكم المقاصد وذلك لتأكيد نوعيته إذا كان تغليب الظن يميل إلى الذكورة أو الأنوثة مع وجود كل المعطيات الأصلية، ولا يقال عن هذا أنّه من باب تغيير خلق الله بل هو من باب إعادة الأشياء إلى أصلها مع توفر المعطيات الأساسية التي تحيط بتلك الحالة وذلك بناءً على القاعدة التي تقول: "إن الأشياء تعود لأصلها بأدنى سبب"، وتثبيت هذه الحالة إما ذكر أو أنثى وحسب ما بيناه أولى من بقائه خنثى مع ما يترتب عليه من كثرة الإشكاليات في المجتمع وملاحظة أنّ الأصل في الخلق الذكر والأنثى والخنثى عارض وليس أصلاً وهذا متطابق أيضاً مع القاعدة التي تقول: "كلّما كرّت الوسيلة على الأصل بالإبطال يقع إبطال الوسيلة" والحالة التي بين أيدينا هو تثبيت الأصل باستعمال الوسيلة فلا تعارض والحمد لله على منّه وفضله مع اعتبار أنّ الأصل دائماًَ وأبداً مقدّم على الفرع والخنثى فرع عن الذكر والأنثى، وذلك بظاهر حاله لنا أما بحقيقة ماهيته لا مانع من أن يكون ذكراً أو أنثى لأنّ له حقيقة ترده إلى هذين النوعين وهي الآدمية فيلحق بأحدهما مع اعتبار ما ذكرناه وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾(النساء من الآية:1). وبناءً على هذا المعنى فإنّ العودة إلى الأصل تصبح من باب الضروريات على شرط أن لا يكون لها بدل وهو متحقق هنا غاية التحقق وبهذا المثال يتضح الحال قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات الآية:13)، ومثل هذه الآية في القرآن كثير وهي تدلّ على أنّ أصل الخليقة من ذكر وأنثى والحمد لله على ذلك.

فائدة: اعلم أخي المسلم أنّ أصل المخلوقات الماء والماء خلق من غير أصل قال الله تعالى: ﴿ وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي﴾(الأنبياء من الآية:30)، وقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: « كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء »(رواه البخاري). وإنّ النوع البشري هو آخر المخلوقات من حيث الوجود والترتيب وأوّل البشر آدم وهو أبو البشر وأنّ الله تعالى لعموم قدرته يخلق ابتداءً من غير شيء وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئا من شيء لا عن حاجة، فإنّه قدوس عن الحاجات سالم عن الآفات كما قال القدوس السلام، فخلق آدم من الأرض (أي التراب) وخلق حواء من ضلع آدم وخلق عيسى من غير أب وخلقنا نحن من نطفة مترتّبة عن الوطء بين الزوجين الذكر والأنثى كائناً عن الحمل موجوداً في الرحم بالوضع فإنه يخلق الأشياء من لا شيء فسبحان الذي له في خلقه شؤون إذا ما أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون: أي إذا ما تعلقت قدرته بشيء أوجده على وفق إرادته وسابق علمه.

الخاتمة

وبعد هذا البيان لا بدّ لنا أن نقول أن الذين ادّعوا مؤخراً أنّ أصل مادة المنيّ لا يمر في الصلب والترائب قبل أن يصل إلى أنثيي الرجل كان عليهم من باب الأحرى والأولى أن يقولوا لنا من أين يمرّ وخاصة بعد وجود هذه الآلات العصرية الحديثة التي بإمكانها أن تحدد لنا نوع المولود من أواخر الشهر الرابع ولكنّه القدح في الدين وبسنة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم ولم يعلموا أن هناك من قالها قبلهم من مشركي العرب ولهذا نزلت هذه الآية الكريمة وما تعلق بها من بقية الآيات وسنة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم للردّ عليهم وعلى من سيأتي بعدهم إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، واعلم أنّ أصل الإنكار هذا مردّه إما عن جهل أو عناد أو جهل وعناد معاً أو إلى نظرية ما حسنه العقل فهو حسن وما قبحه العقل فهو قبيح، وهذا معناه قلب الظن إلى اليقين وقلب الجائز إلى واجب وما أصابوا لأّنه يترتب عليه إتباع الشرع العقل، وهذا مخالف لأصل التكوين لأنّ العقل خلق ليكون شاهداً على ما جاء به الشرع لا ضده وأن يكون تابعاً له وهو مناط التكليف وبه ميز الإنسان عن غيره من المخلوقات وأن الشرع لا يأتي إلاّ بمجوزات العقول وشتان ما بين الشرع والعقل فإنّ صاحب العقل يعجز وخالق العقل لا يعجز فافهم ذلك ترشد إلى الصواب وهو مصداق قوله تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾(المؤمنون من الآية:71) والله ورسوله أعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

إعداد:

قسم البحوث والدراسات

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم

15 شوال 1428هجري الموافق له 26 أكتوبر 2007 رومي